إنما أشكو بثي وحزني إلى الله

تعبر الآية الكريمة: { إنما أشكو بثي وحزني إلى الله } (يوسف : 86) عن الحالة النفسية التي وصل إليها نبي الله الكريم يعقوب عليه السلام من الأحزان المتجددة في نفسه على ابنه يوسف عليه السلام، والشكوى من الألم الذي نزل به حتى أصيبت عيناه بسبب الحزن بغشاوة بيضاء، وكيف لجأ إلى الله الكاشف المضرات، والمذهب للأحزان والمكروهات، متعلقا بحوله وقوته.

وهو بهذه الكلمات يرد بالثبات واليقين على أولاده الذين لطالما عاتبوه على إبدائه الأسى والألم على مفارقة ابنه يوسف، وذلك حين قالوا لأبيهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: 85].

وكان جواب يعقوب عليه السلام: ما أَشكو مصيبتي التي لا أَستطيع إِخفاءَها، ولا أَشكو حزني لأَحد إِلا إِلى الله، فهو القادر على كشف التفسير، وأَتبع يعقوب كلامه هذا بما يفيد أَمله في رحمة الله فقال: { وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (يوسف :86) .

وهو إقرار منه بتوحيد الله في حالة البؤس والحزن، ويقينه في الله ورحمته ما يجهله الناس، فقد كان يحيى بوجدانه النبوي الصادق وبما قام لديه من الأمارات أن يوسف حي لم يمت وأنه وصل أو سيصل إلى منزلة عظيمة بين الناس، وأن شمل الأُسرة سوف يجتمع بزعامة يوسف [1].

وهو بهذه الإجابة البالغة بين موقفه المشرف أن جزعه وحزنه إلى الله تعالى، وليس إلى أي أحد من أولاده أو من أي مخلوق كائنا من كان، ويعقوب عليه السلام بعد نبي بشر يصيبه أعراض كأي إنسان مخلوق، "فالجزع البالغ والحزن الشديد أمر إنساني عند الشدائد والمصائب، وهو غير مذموم شرعا إذا اقترن بالصبر، وضبط النفس، حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن، ولقد بكى رسول صلّى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم، وقال فيما رواه الشيخان: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

وإنما الجزع المذموم: ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه، وتمزيق الثياب.

وثبت عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه بكى على ابنه إبراهيم فوجده يجود بنفسه فأخذه النبي {ﷺ} فوضعه في حجره فبكى، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أو تبكي أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: لا ولكن نهيت عن صوتين أحمقين صوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان وصوت عند نغمة لعب ولهو ومزامير شيطان. رواه الترمذي وقال: حسن.

وقال الحسن البصري حينما بكى على ولد أو غيره: «ما رأيت الله جعل الحزن عارا على يعقوب»"[2].

أصل البث في قوله تعالى (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله): إثارة الشيء وتفريقه، وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والشر.

قال ابن قتيبة: البث: أشد الحزن، وذلك لأن الإنسان إذا ستر الحزن وكتمه كان هما، فإذا ذكره لغيره، كان بثا، وعلى هذا يكون المعنى: إنما أشكو حزني العظيم وحزني القليل إلى الله لا إليكم، هذا؛ وقد قيل: سميت المصيبة بثّا مجازا، قال ذو الرمة: [الطويل]

وقفت على ربع لميّة ناقتي... فما زلت أبكي عنده وأخاطبه

هو عظيم الحزن الذي لا يصبر عليه حتى يبث إلى الناس[3].

وقال ابن عاشور: البث: الهم الشديد، وهو التفكير في الشيء المسيء. والحزن: الأسف على فائت. فبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعا ليعقوب- عليه السلام- لأنه كان مهتما بالتفكير في مصير يوسف- عليه السلام- وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفا على فراقه. وقد أعقب كلامه بقوله: (وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ).

وذلك لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلموه أو يلوموه، أي أنا أعلم علما من عند الله علمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوءة[4].

وجملة ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ مفيدة قصر شكواه على التعلق باسم الله، أي يشكو إلى الله لا إلى نفسه ليجدد الحزن، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة وهي عبادة لأن الدعاء عبادة، وصار ابيضاض عينيه الناشئ عن التذكر الناشئ عن الشكوى أثرا جسديا ناشئا عن عبادة مثل تفطر أقدام النبيء ﷺ من قيام الليل.[5]

والشكاية نوعان ملفوظة وملحوظة، فأمَّا الملفوظة أو الملفوظ بها، فنحو قوله تعالى حكاية عن يعقوب: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ... (86)} وأمَّا الملحوظة المقدَّرة غير الملفوظ بها، فنحو قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44)} [غافر].

ومن بلاغات هذه الآية ما ذكره أحمد الشوابكة، أنها اشتملت على بديع الانسجام، والمقصود بالانسجام: أن يأتي الكلام متحدِّراً كتحدِّر الماء المنسجم، بسهولة لفظٍ، ورقَّة معنى، وحسن تأليف، حتَّى يكون له في القلوب تأثير، وفي النُّفوس موقعٌ أثير. ويقوى الانسجام ويصفو إذا جاء موزوناً من غير أن يُقصَد إليه.

ومن الانسجام في القرآن قوله تعالى حكاية عن يعقوب – عليه السلام -: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86)}.

فمن سمع هذه الآية بقلبه وجد سهولةَ لفظ، وعذوبةَ معنى، وحسنَ تعطُّف ظاهر في قوله: {إِلَى اللَّهِ} وقوله: {وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ} فلم يقل: (وأعلم منه) مع أنَّه أوجز في اللَّفظ؛ ليأتي في الكلام زيادةُ تعطُّف وترقُّق واسترحام وخضوع يزيد الكلام حُسْناً يحلو في النُّفوس ويعذب.

وقد جاء مع الانسجام بديع غير مقصود، وهو طباق السَّلب في قوله: {وَأَعْلَمُ} وقوله: {لَا تَعْلَمُونَ}[6].

ماذا يستفاد من الآية: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله؟

ومن فقه الآية الكريمة ما ذكره العلامة وهبة الزحيلي رحمه الله تعالى ما يأتي:

1– تجدد مصاب يعقوب وحزنه على يوسف بغياب ولدين آخرين هما أكبر أولاده وأصغرهم، فأسف أسفا شديدا، والأسف: شدة الحزن على ما فات، وعمي فلم يعد يبصر بعينيه ست سنين من البكاء، الذي كان سببه الحزن، ولكن الله العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والإحسان والرحمة والمصلحة هيأ لجمع الأسرة كلها. فانقلبت المحنة إلى المنحة!

2– إن الحزن ليس بمحظور إذا اقترن بالصبر والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره، فذلك من طبع الإنسان وعاطفته، وإنما المحظور هو السخط على القضاء والقدر، والولولة، وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي، قال النبي صلّى الله عليه وسلم فيما أخرجه الشيخان:

(تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب).

وبناء عليه لما سمع يعقوب عليه السلام كلام أبنائه، ضاق قلبه جدا، وأعرض عنهم، وفارقهم، ثم طلبهم أخيرا وعاد إليهم.

3 – أشفق أولاد يعقوب على أبيهم، ورقوا، وذكروا له مخاطر الاستمرار في حال الحزن، وهي إما المرض المضعف القوة، وإما الهلاك والموت، وهذا أمر واقعي مطابق لأحوال الناس.

5– إن نبي الله يعقوب يعلم مالا يعلم غيره من الناس بما عند الله من رحمة وإحسان وتفريج كرب، ويعلم أيضا أن رؤيا يوسف صادقة، وأنه وزوجته وأبناؤه سيسجدون له، تصديقا لرؤياه السابقة وهو صغير.

6– تيقن يعقوب عليه السلام حياة ابنه يوسف إما بالرؤيا، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه، وهو أظهر، فعاد يكلم أولاده باللطف، وطلب منهم الذهاب إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه.

7– لا يقنط من فرج الله إلا القوم الكافرون، وهذا دليل على أن الكافر يقنط في حال الشدّة، وعلى أن القنوط من الكبائر، أما المؤمن فيرجو دائما فرج الله تعالى

[1] التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية (5/372).

[2] التفسير المنير (13/46).

[3] تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه (4/647).

[4] التحرير والتنوير (13/ 45).

[5] المرجع السابق.

[6] غرر البيان من سورة يوسف -عليه السلام- في القرآن (156).